إنها أمي

للأستاذ محمود خيرت

كنت أجد صالة البيوع هاجعة ، يخيل إليّ وأنا أمر في مماشيها الملتوية بسبب تكدس محتوياتها أنها خالية من القائمين عليها . ومديرها منزو في ركن مظلم وقد أرخاه الكسل وعابه النعاس ، وكذلك عماله ، لوقوف حركة البيع والشراء بسبب دخول فصل الصيف

أما المكان فكان مكتظاً بمختلف المعروضات ، فهنا أثاث قديم ولكنه من طراز لويس الخامس عشر أو السادس عشر ، وهناك في بعض الأركان تماثيل من الجص والطين المحترق والبرنز استوقفني من بينها تمثال من المرمر لغادة عارية تناهي جسمها في الحسن ودقة التنسيب ، وعلى كتفيها دراعة يتدلى طرفها فيغطي أحد نهديها وأعلى فخذيها وهي من نفس المرمر ، ولكنك مع ذلك تكاد تلمح من خلالها محاسن هذا الجسم الفتان الناعم . وفي مكان آخر قفص أسلاكه من النحاس به ببغاء لاتنطق ولا تتحرك كأنها من بعض التماثيل الخ . الخ

ولكن الصالة في ذلك اليوم كانت تموج بالناس وبأيديهم بيان مطبوع يقفون منه على ما سيتناوله المزاد ، وكان المدير وعماله يتنقلون في أرجاء الصالة وقد امتلأوا نشاطاً وحركة ، حتى إذا مادنا الموعد ودق الجرس أخذ الدلال يصيح بصوت عال :

سرير بلدكان الباجا يومه ٣ طراز لويس الرابع عشر كان مخصصاً لنوم البارون دي ... وعندئذ يتبارى الراغبون فيه فتسمع تحاورهم في المزايدة : خمسة جنيهات ... ونصف ... سبعة ... ونصف ... عشرة وعندئذ يصيح العامل في أسف :

عشرة جنيهات بس ! مين قال حداشر ... راح نبيع ... راح نكسب ... الأولة ، الأتنية ، مبروك عليك يفندى

أما أنا فكنت في شاغل عن هذه الحركة بمداعبة الببغاء ، أحدثها فتسكت ، وأستنطقها فلا تجيب . وقد خطر لي أن أغريها بقطعة من السكر من مقهى قريب بيني وبين صاحبه صلة . ولكنها مع ذلك لزمت صمتها بالرغم من إلحاحي ؛ وكأن صبرها فرغ فرفعت في وجهي عينيها المستديرتين الصغيرتين ثم فتحت منقارها الأصفر صائحة في غضب : لأ . لأ ... وعند ذلك أقبل الدلال ونقلها إلى مائدة في وسط المكان فأخذ الحاضرون يتدافعون حولها ثم طرحها في المزاد ، حتى إذا وقف عند سبعة جنيهات صاحت الببغاء من داخل القفص وهي تقول : (ثمانية) فضحك الناس إلا واحداً من بينهم كان يسمع له أنين وبكاء ، وكان رجلا قصير القامة ذابل العينين فأخذ يقول وقد اخضلت لحيته البيضاء بالدموع : إنها تساوي أضعاف ذلك لأنها تعرف أربع لغات ، وكانت أنيسي في غيبة زوجتي وأولادي بأثينا ، ولولا هذه الحرب القائمة لما عزمت على اللحاق بهم ولا

اضطررت إلى التفريط فى هذا الطير الذى يحبني وأعبده . ثم يعود إلى البكاء

أما فى هذه المرة فقد كان المعروض صورتين زيتيتين لرأسي رجل وامرأة طاعنين فى السن ، وما كانت مساحة كل منهما تتجاوز عشرين سنتيمترا فى عشرة

أخذ المنادى يصيح : الثمن الأساسى جنيهان لكل صورة . والمزاد عليهما معاً . ولكن الناس أعرضوا عنهما مع ما كانتا عليه من دقة الصنع وروعة الفن ، وأخيراً أعادهما إلى حيث كانتا وأخذ في إشهار المزاد عن معروضات أخرى

لقد كانت هاتان الصورتان آيتين من آيات الفن الحديث ومع ذلك غفل الناس عن التفكير فى اقتنائهما وما كان المزاد ليرسو فيهما بأكثر من بضعة جنيهات ولكنهم أحجموا ولهم العذر ، وما كانت النفوس فى مصر قد استعدت وقتئذ لفهم مثل هذه الآثار وتقديرها والشغف بها ؛ ولو أنى كنت فى ذلك اليوم أملك أكثر من جنيهين كانا كل ما معي لما ترددت لحظة في الظفر بهما لأنني بالرغم من اشتغالى بالمحاماة كنت أيضاً مولعاً بالتصوير أتلقى فيه درساً على المرحوم باولو فورشيلا أستاذ مدرسة الفنون الجميلة . بل إنى كنت أيضاً أكثر من الاطلاع على بعض مجلات هذا الفن وعلى بضعة من الكتب الموضوعة فيه ومنها أجرومية شارل بلان التى هى بالنسبة للفنون الجميلة أشبه بمقدمة ابن خلدون بالنسبة لتاريخ العمران ، ولذلك كانت نفسى مهيأة إلى حد ما لإدراك مالهاتين الصورتين من القيمة الفنية حتى أنى بعد أن أعادهما المنادى إلى مكانهما لبثت أنظر إليهما فى خشوع وأنا يغمرنى سيال لطيف من السرور والنشوة

وكان يتنازعني عندئذ عاملان قويان امتزج فيهما سلطان الفن بسلطان العاطفة ، لأن الطريقة التى اتبعها المصور فيهما حديثة يطلقون عليها اسم Impressionnisme أى رصد الأثر الوقتي الذى تشعر به النفس . والمصور على أساس هذه الطريقة يقذف بألوانه فوق لوحته قذفا لكى لا يتبدد الأثر الذى تكون النفس قد شعرت به فى لحظات تأملها . ولذلك لا تجد نفسك أمام لوحة مستوية مصقولة بل أمام مايشبه أطواداً وأغواراً من ألوان متحجرة لو أنك مررت عليها بأصابعك لتفززت نفسك عند لمسها . ولكنك إذا نظرت إليها من بعيد هالك ما يتجلى فيها من جمال الطبيعة الحى فتسحرك سحراً وتفتنك فتوناً .

على أن نفسى أخذت بعد ذلك تنحدر فى اتجاه آخر وأنا أتساءل عن حقيقة هذين الشخصين : أكانا أخوين ؟ أم كانا زوجين؟ لأن الذى صورهما شخص واحد (ج . موستاكيس) ولما بين الصورتين من الوحدة فى الوضع والالتفات والقياس والإطار . كما أن الصالة اشترطت أن لا تباع إحداهما دون الأخرى؛ ثم إنى لمحت فوق جمال المرأة وسموها البادين من خلال شيخوختها وفوق مايشعه وجه الرجل من دلائل القوة والنبل أنه يحمل معطفا من معاطف الجندية لا يرتديه إلا ذو مقام فيها . وعندئذ يذهب خاطرى إلى أنهما كريتا المنبت ، وكانا فى بسطة من العيش فلما كشر لهما الحظ سلكا سبيل ذلك النفر الذى يفقره البؤس وتفنيه الشيخوخة بما تحمل معها من أجسام مترهلة ووجوه مفضنة مما يسعى إليه الفنانون فى دراساتهم ، ولذلك دفعت بهما الحاجة إلى الوقوف أمامهم كنماذج

وكثيراً ما كنت أمر على تلك الصالة فأجد الصورتين فى مكانهما وأساوم صاحبهما فيهما أو فى إحداهما فيأبى ، وأخيراً قبل أن يأخذ فى واحدة منهما ثلاثة جنيهات ، فاخترت المرأة وحملتها إلى منزلي وأنا أشعر بأنى أحمل كنزاً .

كنت فى ذلك اليوم أشعر بالسعادة تهبط علىّ من جميع النواحى وأحس وأنا أعلقها على أحد جدران مكتبى بحيث تقع عينى دائما عليها أننى ظفرت بأسمى تحفة من تحف الفن . نعم إن زوجتى حين أبصرتها كادت تستلقى على ظهرها من الضحك ، وهى تدهش لأننى قد دفعت فيها ذلك الثمن مع أنها لا تساوى فى نظرها قرشاً . ولكنى كنت فى شاغل عنها بما يفوح به ذلك الوجه المغبر وتلك البشرة المتجعدة من عبير الجمال والإبداع مما زاد فى ثورتها ، فجمعت حولى أولادها وهى تقول : أنظروا ماذا جاء به أبوكم اليوم ! ومن الغريب أنه كثير الإعجاب بها ويقول إنها من أجمل الصور التى رآها : وعند ذلك ينفجرون بالضحك ويصيحون : إيه إيه ! دى جميلة ، دى زيّ ستنا العجوزة اللى ماتت . مش كده ياماما . وعند ذلك تتشمخ بأنفها كأنها قد تم لها الانتصار علىّ وأنا فى نفسى أضحك عليها وعلى هذا الجهل الذى غمرها حتى طاب لها الاستنجاد بهؤلاء الصغار

ويا ليتها اكتفت بذلك فقد أخذت تروي قصتى هذه لكل من تجتمع بهن من السيدات سواء فى دارنا أو فى دورهن فى أيام زيارتها لهن حتى علم من يعرفوننا بخبر تلك الصورة وحتى أقبل أحدهم ليزورنى وليرى بعينيه ذلك الأثر الذى أقام كل هذه الضجة ، وكانت زوجتى حاضرة مجلسنا وهى تحدث نفسها بأن هذا الزائر سوف ينصفها وينتصر لها ولذلك أخذت تعدّ نفسها هذه المرة لتصفع كبريائى وجهلى الصفعة الأخيرة . ولكن كم كانت دهشتها حين رأته على غير رأيها وأن مادفعته ليس بالكثير فى جانب هذه اللوحة القيّمة . وعند ذلك خيّل إليها أنه إنما يمزح أو أنه مثلى مجنون ؛ ثم أرادت أن تتبين أمره فقالت له : إذن خذها بالثمن الذي دفعه زوجى فيها فقال : بل إننى أدفع فيها عشرين جنيها لو أنه يرضى . أما أنا فرفضت ، وأما هى فخرجت مغضبة

والواقع أننى ما كنت لأقبل فيها ثمناً ما مهما كان مع أنها ما كانت إلا قطعة بسيطة من القماش فى إطار قديم لا تساوى معه بضعة قروش . ولكن القيمة فى الفن الذى كساها ، واليد الموهوبة الماهرة التى أخرجته عليها . والفنان ، الذى وهو يصور نموذجيه ، تجرد عن كل شىء إلا عن التفكير فيهما فامتزجت نفسه بنفسيهما حتى تلمس فى هذه الخرقة البالية وفى أختها خفقات قلبه ، وحرارة أنفاسه ، وهيامه بفنه ، وتلاشيه فيه . فما هى إلا وحى أرسلته خواطره ، وأبدعته ألوانه الخاضعة وأصابعه الجبارة . وإذن فكيف أفرط فيها ولا أكون ضنيناً كل الضن بها ؟ إن البخيل ليكنز الدينار لذهبه ، ولكن الفنان أو المولع بالفن يحتفظ به للنقش البديع الذى على وجهيه . وقد يكون هذا النقش على قطعة من الحديد لا تساوى شيئاً ولكنه لا ينزل عنها ولو عُوّض فيها سبيكة من الذهب الخالص

كنت سعيداً كل السعادة بهذه الصورة لا أخرج إلا إذا عرجت على غرفة مكتبي لأملأ عينى منها ولا أعود حتى أسرع نحوها لأطمئن عليها . أما زوجتى فما عادت تكلمنى فى شأنها ولكن أثر

الحزن كان بادياً على وجهها وعلى حركاتها . ولعلها الغيرة التي أحدثت ذلك والنساء يغرن حتى من صورة ، وحتى من صورة لامرأة عجوز

على أن هذه السعادة لم تدم طويلا . فلقد كنت ذات ليلة مستغرقاً فى النظر إليها فانتقل خاطرى فجأة إلى صالة البيوع وإلى الصورة الأخرى التى بها . وعند ذلك غمرنى حزن خفى وشملنى ذهول مشوش وخيل إلى أن الصورتين إن هما إلا روحان قربت بينهما تلك الصالة فكانتا سعيدتين بهذا القرب ، أما وقد فرقت بينهما فقد هدمت بعملى هذا تلك السعادة . وعند ذلك رفعت بصرى إليها فهالنى ما صوره لى وهمى وكأن الحزن يرج الإطار رجاً ويهز الصورة التى بين أعواده هزاً عنيفاً ، كما خيل لى أن شعرها السنجابى تحول إلى بياض ناصع ، وأن السطور الأربعة التى ارتسمت على جبينها أصبحت مضاعفة وأن تينك العينين الذابلتين اللتين كان يشع منهما النور واللطف والسكون أصبحتا أكثر ذبولا ، وانبثق منهما شعاعان ضعيفان يحملان فى ذراتهما كل معانى الظلمة والأسى والاضطراب . وعند ذلك اتجه خاطرى إلى صورة ذلك الجندى الخميس فى ظلام تلك الصالة ، فكاد يغمى على لما صار إليه وقد فعل فيه البعد مافعل بأخته أو زوجه ، حتى أننى لما أصبح الصباح عقدت العزم على اقتناء تلك الصورة وأنا أقول لأختها فى نفسى : لن تحزنى فسيكون إلى جانبك بعد قليل . ولكن صاحب الصالة أفهمنى أنها بيعت من يوم ، وأنه لا يعرف أين يقيم ذلك الذى اشتراها . فعدت ، وقد توزعت خواطرى وبعثرت خطواتى وثقل همى ، ولكنى ما كدت أجتاز عتبة الدار حتى ناولنى خادمى كتاباً قال إن رجلا تركه وسيعود

سيدى المحترم

لم يسبق لى أن حظيت بمعرفتك . ولكن سراً ألماً هو الذى جعلنى أقصدك وأطمع فى عونك وأنت محام تنصر الحق ويفيض قلبك بالرحمة . فى سنة ١٨٩٨ كنت أتهيأ لامتحان السنة النهائية للفنون الجميلة بمدرسة أثينا . وكان من بين اللوحات التى يجب أن أتقدم بها صورتان لشخصين مما يعبر عنه بالمحاولة (Etude) فرأيت أن تكونا صورتى أبى وأمى الشيخين . ولما نجحت حجزوا تلك اللوحات إلا صورتيهما فقد احتفظت بهما لتعزيتهما على . ولما قامت الحرب العالمية الأخيرة وقف عملى وضاقت يدى فاضطررت إلى بيعهما وأنا أبكى . ولكنى وقد تهيأ لى سبيل العمل رأيت من الواجب أن أستعيد هذين الأثرين اللذين أفرغت فيهما مواهبى وحبى . وقد عثرت على إحداهما أمس فقط باحدى صالات البيع وعلمت أن الأخرى عندك . . . فهل تحول بينها وبينى ؟ إنها أمى . . .

ج . موستا كيس

وما كدت أنتهى من تلاوة هذا الكتاب حتى سرى عنى وخف عبء الهم الذى كان يضغط على صدرى : وكان الرجل قد أقبل فسبقته إلى غرفة مكتبى وأخذت الصورة من مكانها وأنا أقول لها فى نفسى : هأنذا أبر بوعدى فأردك لا إلى زوجك فحسب ، بل إلى حظيرة ولدك أيضاً . ثم ناولته إياها فشكرنى بلسان مضطرب ثم طبع على خدى قبلة شعرت أنها هى التى طبعتها .

(القاهرة) محمود عنبرت